العُلُومُ الإنسَانِيَّةُ الغربيَّة وليدةُ القَطِيعَة الحَدَاثيَّة مع الدِّين

طلال عتريسي*

أدَّت التَّحوُّلات الكبرى الَّتِي مرَّت بها المُجْتَمَعَات عبر التَّاريخ، مثل: الحروب، والثَّورات، والاكتشافات العلميَّة، والتَّطوُّر التّقنيّ والتّكنولوجيّ، والعوامل البيئيَّة، مثل: التَّصحُّر، أو الفيضانات، وحتَّى الأوبئة المُمِيتَة، إلى تغييرٍ كبيرٍ في نمطِ حياةِ النَّاس، وفي طرائقِ تفكيرِهم.

ففي التَّجربةِ الأوروبيَّة، على سبيل المثال، الَّتِي قدَّمت عُلُومًا إنسانيَّة باتت عالميَّة، كان للطَّاعون في منتصف القرن الرابع عشر الَّذِي أُطْلِقَ عليه «الموت الأسود» تأثيرٌ كبيرٌ في التَّحَوُّلات الَّتِي حصلت في أوروبا. وتتَّفق المصادر المختلفة الَّتِي أرّخت لذلك الوباء أنَّ تبعات «الموت الأسود» أدَّت إلى عددٍ من الهزّات الدِّينيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة الَّتِي بدت آثارها جسيمة على التَّاريخ الأوروبي[1].

لقد استمرَّ ذلك الوباء القاتل أربع سنوات خسرت خلالها أوروبا أكثر من خمسين مليونًا من سكَّانها (ربع إلى ثلث السُّكَّان بحسب التَّقديرات) ثمَّ تجدّد

---

* أستاذ علم الاجتماع، ورئيس تحرير مجلة جامعة المعارف.

1- Stéphane Barry and Norbert Gualde “The Biggest Epidemic of History”,épidémie de l’histoire, in L’Histoiren°310, June 2006, pp.45-46 La plus grand.

مرَّات عدَّة كل بضع سنوات، وعرف باسم الوباء الثَّاني بين القرنين: الرَّابع عشر والثَّامن عشر. وقد احتار رجال الدِّين والمعالجون في تفسير أسبابه؛ فمنهم من ذهب إلى القول: إنَّه غضب الآلهة، أو هي الزَّلازل والبراكين، في حين رمى آخرون التّهمة على اليَهُودِ الَّذِين «سمّموا آبار المياه»[1].

كان من أبرز تداعيات ذلك الوباء، وما أدَّى إليه من خسائر هائلة في الأرواح، ومن تغييرٍ في نمطِ حياةِ النَّاس، أن ضعُفت سُلْطَة الكنيسة الَّتِي عجزت عن إنقاذ النَّاس من «الموت الأسود»، بعد وعودها لهم بالخلاص والشِّفاء. ولم تنفع اتّهامات رجال الدِّين القطط بنقل الوباء بعدما تلبّستها الأرواح الشِّرِّيرة فأمرت بقتلها؛ ما أتاح تكاثر الفئران الَّتِي أسهمت في نقلِ الطَّاعون وانتشاره بشكلٍ واسع. «لقد أصبح رجال الدِّين على المحكّ، وتوجّب على المدنيِّين أن يتلمّسوا طُرُقًا أخرى جديدة إلى السَّماء»[2].

تأثَّرت ثقافة المجتمع بما تركه ذلك الوباء من مآسٍ وضحايا. «فقد تحوّلت الثَّقافة الأوروبيَّة بعد العام 1350م، إلى ثقافةٍ مَرَضيَّة بشكلٍ عام. كانت الحالة العامَّة هي التَّشاؤم، وحتَّى الفنّ آنذاك تحوّل إلى فنٍّ مُظلم مُفْعَم بتجسيدِ الموت»[3]. أمَّا في عصر النَّهضة، بعد الانقلاب على الكنيسة وإضعافً سلطتها، فستتحوَّل تلك الثَّقافة إلى ثقافة الانعتاقِ والحرِّيَّة والاستمتاع بملذَّاتِ الحياةِ بعيدًا من أيّ أوامر، أو ممنوعات كنسيَّة، أو دينيَّة.

حدثت على جبهة الطّبّ، في الوقت نفسه، تغّيرات مهمَّة بفضل ذلك الطَّاعون، فقد تطوَّرت إجراءات الصّحَّة العامَّة، وتمَّ اكتشاف الدَّورة الدمويَّة، وإحياء علم التَّشريح. كما تطوَّرت التّقنيّة الصِّناعيَّة تحت ضغط قلَّة الأيدي العاملة. وعُرِف العصر الَّذِي امتدَّ حتى العام 1500م بعصر الابتكارات، وهو العصر الَّذِي تطوَّرت فيه الابتكارات والاكتشافات العلميَّة والصِّناعيَّة والَّذِي أُطلق عليه عصر النَّهضة الأوروبيَّة، أو عصر الأنوار قياسًا إلى أو مقارنة مع ما عُدَّ من عصور الظلام (زمن

1- Joseph P Byrne, Encyclopedia of the Black Death, Volume 1, 2012, Page 15, "Anti-Semitism and Anti-Jewish Violence before the Black Death.

2- روبيرت جوتفريد «الموت الأسود» المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة ،2017م، ص135.

3- J. M. Bennett and C. W. Hollister, Medieval Europe: A Short History (New York), McGraw-Hill, 2006, p. 372.

السَّيطرة الكنسيَّة والدّينيَّة)، أو العصور الوسطى في أوروبا نفسها.

هكذا ستشهدُ أوروبا مرحلةً جديدةً من تاريخها بعد ما عُرف بـ«الوباء الأسود»، هي مرحلة تراجع سلطة الكنيسة في الوقت الَّذِي سيبدأ فيه تقدُّم البحث العلميّ. لقد عجز التَّفكير الكنسيّ عن تفسير أسباب الطّاعون (مثل: اتِّهام القطط بنقل الأرواح الشّرّيرة الَّتِي تسبِّب الطّاعون)، كما عجز عن تقديم العلاج للمُصَابِين، في الوقت الَّذِي كانت تدَّعي فيه الكنيسة امتلاكها المعرفة في مختلف المجالات، وتمنع أيّ تفكير علميّ حتَّى في القضايا غير الدِّينيَّة يخالف ما تراه هي صحيحًا، فتتَّهمه بالهرطقة والمروق عن الدِّين.

لن يقتصر الأمر على ذلك التَّحوُّل الكبير الَّذِي حصل بسبب «الوباء الأسود»؛ بل ستشهد أوروبا أيضًا أربعة أحداث كبرى متعاقبة ستترك تأثيراتها العميقة على حياة النَّاس، وعلى طرائق تفكيرهم وحتَّى على أُسُس العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ومنطلقاتها ونظريَّاتها. وستكون تلك الأحداث والتَّحوُّلات على الشَّكل الآتي:

- الانقلاب على الكنيسة وما نتج عنه من تهميش دور الدِّين في الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة في مطلع القرن السَّادس عشر.
- الحروب الدينيَّة في أوروبا الَّتِي استمرَّت نحو 130عامًا من بدايات القرن السّادس عشر حتى منتصف السَّابع عشر؛ أي من العام 1517م إلى العام 1648م بين الكاثوليك والبروتستانت.
- الثَّورة الفرنسيَّة في نهايات القرن الثّامن عشر (1789م) الَّتِي رفعت شعارات العلمانيَّة والحرِّيَّة والمساواة ضدّ النّظام الاجتماعيّ القديم (وكانت شديدة الهجوم على الدّين والكنيسة، وعملت على تحويل المجتمع عن المسيحيَّة، وطرد الشَّخصيَّات الدّينيَّة من مختلف المؤسَّسات).
- الثَّورة الصِّناعيَّة في بريطانيا ثمَّ في معظم أوروبا (خلال القرن الثّامن عشر) وما أدَّت إليه من ابتكارات تقنيَّة، مثل: الطَّاقة البخاريَّة، وتوسُّع الصّناعة، واستخدام معدَّات آليَّة، وصولًا إلى ثورةٍ صناعيَّةٍ واسعة في القرن التَّاسع عشر. وسيكون لتلك الثَّورة تداعيات اجتماعيَّة، وأشكال جديدة من القيم ومن العلاقات، مثل: تغيير بِنْية الأسرة، وخروج المرأة من المنزل إلى العمل، وهجرة السُّكَّان من الأرياف إلى المُدُن، وتعظيم قيم الملكيّة، وانتقال الأسواق إلى المدن الكبرى. ويضيف «ريتشارد تارتاس» في كتابه

«آلام العقل الغربيّ» أربعة اختراعات كانت قد انتشرت على نطاقٍ واسع في الغرب، انطوت على تبعاتٍ ثقافيَّةٍ بالغة الأهمِّيَّة، وأنزلت ضربةً قويّةً برجال الدّين، وهي: البوصلة المغناطيسيَّة الَّتي أتاحت المشروعات الملاحيَّة العظيمة، وفتحت كوكب الأرض أمام الاستكشاف الأوروبيّ؛ والبارود الَّذي أسهمَ في زوال النِّظام الإقطاعيّ، وصعود النّزعة القوميَّة؛ والسَّاعة الميكانيكيَّة الَّتي أحدثت انقلابًا حقيقيًّا في علاقةِ الإنسانِ بالزَّمن والطَّبيعة والعمل؛ وآلة الطِّباعة الَّتي أفضت إلى زيادة هائلة في التعلي، وأنزلت ضربةً كبيرةً باحتكارِ رجال الدّين الطَّويل للعلم[1]. وسيكون لتلك الثَّورة العلميَّة تأثيرٌ واسعٌ وعميقٌ على مناهج التَّفكير الَّتي ستتجاوز قضايا المادَّة، والفيزياء، والمختبرات، إلى قضايا الإنسان، والمجتمع، والسُّلوك، وما سيُعرف لاحقًا بالعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

تعرَّضت الحياة الفكريَّة في العصور الوسطى إلى قيودٍ صارمةٍ حجبت عنها نور المعرفة والتَّقدُّم. وتتَّفق المصادر التَّاريخيَّة المختلفة على الدَّور السَّلبيِّ المباشر الَّذي أدَّتْه الكنيسة في تثبيتِ تلك القيود، بعدما تبنّت آراء ومبادئ عَدَّتها ثابتة في شؤون الحياة، وحركة الأفلاك، وقوانين الطَّبيعة، ومنعت النِّقاش فيها... اعتقدت الكنيسة أنَّ أيَّ رأي، أو حتَّى أيّ فكرة، تخالف ما تراه هي ثابتًا وصحيحًا، خروجًا على سلطانها وتحدِّيًا لها يستحقُّ إمَّا التَّوبة، أو العقاب. حتَّى أصبحت الحياة الفكريَّة جحيمًا لا يُطاقُ «والهرطقة» سيفًا مُسلَّطًا على رقابِ كلّ من يتجرَّأ على مخالفة تلك الآراء في أيِّ شأنٍ من الشُّؤون العلميَّة، أو الفكريَّة. ولا تزال مأساة «غاليلو» تتردَّد في سيرِ التَّاريخ الَّتي تتَّحدث عن تلك المرحلة، وهو الَّذي قال بدوران الأرض، وعدم ثباتها، خلافًا لرأي الكنيسة التَّقليديِّ القائل بأنَّ الأرض ثابتة لا تتحرَّك، فتعرّض لحملةٍ شرسةٍ شنَّتها عليه الأوساط الدِّينيَّة، ولمحاكمةٍ قاسيةٍ صدرت على إثرها مراسيم رسميَّة في العام 1616م[2]؛ ما اضطرَّه وهو في السَّبعين من العمر إلى التَّراجُعِ وإلى توقيع إقرار يتخلَّى فيه عن «الرَّأي الكاذب بأنَّ الشَّمس

1- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربيّ، فهم الأفكار الَّتي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، دار العبيكان، المملكة السّعوديّة، 2010م، ص 269 و272.

2- ج . برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، ترجمة د. موفق شخاشبرو سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 39، 1981م، ص165.

مركـز الكـون، وأنّهـا غيـر مُتحرّكـة، وأنَّ الأرض مُتحرّكـة وليسـت مركـز الكـون... وأن يقسـم علـى رفْـضِ الأخطـاءِ السَّـالفة والهرطقـات ولعنهـا واحتقارهـا، وكلّ خطأ آخـر إذا كان مُضـادًّا للكنيسـة...»[1]. وقـد وضـع غاليلـو رهـن الإقامـة الجَبريَّـة بقيَّـة حياتـه، ومـات وهـو مـا زال سـجينًا فـي بيتـه إلـى العـام 1642م.

تؤكِّـد قصَّـة المُفكّـر الإيطاليّ برونـو (1548م-1600م) تلـك القيـود الَّتِي فرضتهـا الكنيسـة علـى الحيـاة الفكريَّـة. فقـد قُـدِّم ذلـك الرجـل إلـى إحـدى محاكـم التَّفتيـش الكاثوليكيَّـة لمحاكمتـه بتهمـة العقـوق الدِّينـيّ؛ لأنَّـه أصـرَّ علـى رأيـه بوجـود عوالـم غيـر عالمنـا هـذا، فحكـم عليـه بالمـوت حرقًـا بالنَّـار[2]. ومـن المعـروف أنَّ الفلكـيّ البولنـديّ كوبرنيكـوس الَّـذِي توصَّـل إلـى أنَّ الأرض والكواكـب السَّـيَّارة الأخـرى تـدور حـول الشَّـمس، وحـول نفسـها، وخالـف النَّظريَّـات، والمفاهيـم الفلكيَّـة القديمـة، قـد تعـرّض بـدوره لإدانـةِ الكنيسـةِ الكاثوليكيَّـة؛ لأنّ نظريَّتـه مخالفـة لنصـوص الكتـاب المُقـدَّس[3].

«كانـت سـلطات الكنيسـة مـع حلـول القـرن الثَّالـث عشـر خارقـة للعـادة، وكانـت البابويَّـة تتدخَّـل تدخُّـلًا فاعـلًا فـي قضايـا الـدول وشـؤونها فـي طـول أوروبـا وعرضهـا، وتجنـي مبالـغ طائلـة مـن المؤمنيـن؛ دعمًـا للأُبّهـةِ المُتَعَاظِمـة لبـلاطِ البابويَّـة وجهازهـا البيروقراطـيّ العمـلاق... إنَّ سـيادة البابـا الزمنيَّـة علـى الـدّول (الولايـات) البابويَّـة فـي إيطاليـا أدَّت إلـى تـورّطِ الكنيسـة فـي سلسـلةٍ مـن المنـاوراتِ السِّياسـيَّة والعسـكريَّة... أدَّت إلـى إفقادهـا تماسـكها الرُّوحـيّ فـي نظـر المؤمنيـن، وتعـرّض دور الكنيسـة الفعلـيّ لقـدر مُتزايـدٍ مـن التَّهميـش...»[4].

عصر النَّهضة: حداثة العقل وإقصاء الدِّين

إذا كانـت العُصُـورُ الوسْـطَى قـد اتَّسَـمت بالهيمنـةِ الكنسـيَّة علـى الحيـاةِ الرُّوحيَّـة والزمنيَّـة، وانتشـار الشَّـعوذة، وفكـرة الشَّـيَاطين، والخرافـات فـي حياة الناس، فإنَّ سـمات

1- ج . برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، مصدر سابق، العدد 39، 1981م، ص 167.

2- قـدري حفنـي، حـول التاريـخ الاجتماعـيّ لعلـم النَّفـس، القاهـرة، دون ذكـر لـدار النشـر أو للتاريخ، ص 58.

3- روبـرت م. أغـروس. وجـورج ن. ستانسـبو. العلـم فـي منظـوره الجديـد، سلسـلة عالـم المعرفـة، الكويـت، العـدد 134، 1989م، ص 158.

4- تارناس، مصدر سابق، ص 237- 236.

النَّهضة ستتشكَّل من خلال الانقلابِ على تلك الهيمنةِ على جميع المستويات: الفكريَّة، والسِّياسيَّة، وحتَّى الروحيَّة، «ومن تضاؤل سلطةِ الكنيسة، وتزايد سلطة العلم»[1].

وستصبح الدَّعوة إلى الحرِّيَّة في عصر النَّهضة، على سبيل المثال، أحد أبرز مفاهيم الانقلاب على سطوة الكنيسة، وقيودها الفكريَّة والسُّلوكيَّة. فالحركة الإنسانيَّة حملت راية الدَّعوة إلى الحرِّيَّة الفنِّيَّة، وتأكيد الفرديَّة والحرِّيَّة الأخلاقيَّة، وحركة الإصلاح البروتستانتيّ دعت إلى الحرِّيَّة الدِّينيَّة، والحركة العقلانيَّة توجَّهت إلى تعزيز سلطة العقل وحرّيّته على حساب ما هو خارق وغيبيّ، وإعادة الإنسان إلى إطارِ الطَّبيعة، أو الكون المادِّيّ، حتَّى إنَّ حركة التَّنوير في القرن الثَّامن عشر، وأبرز مُمثِّليها إسحاق نيوتن وجون لوك، شدَّدت على العداءِ لرجالِ الدِّين، وعلى الهجوم على المسيحيَّة بكونِها مؤسَّسةً و«على التَّحوُّلِ من نعيم المسيحيَّة الغيبيّ في السَّماء بعد الموت إلى النَّعيم العقلانيّ الطَّبيعيّ على الأرض الآن، أو على الأقلِّ في القريب العاجل»[2]، ولأنَّ بإمكان القوانين الرّياضيَّة، وليس تعاليم الكتب المُقدَّسة تفسير كلّ ظواهر الطَّبيعة، بما في ذلك سلوك الإنسان[3]، حتَّى إنَّ فنون ذلك العصر تميّزت هي أيضًا بالبوهيميَّة الَّتي لا تُقيمُ وزنًا للأعراف خلافًا لفنونِ العصور الوسطى الَّتي ارتبطت دائمًا بالكنيسة[4].

وحتَّى التَّفكير في الموت من المنظور الدِّينيّ نُحِّيَ جانبًا؛ ليستبدل بالدَّعوة إلى عيش الحياة ولحظاتها من خلال المحسوس والتَّجربة فقط...بعيدًا عن الغيبِ والآخرة، حتَّى أصبحت مقولة «عش لحظتك» شعار رجل عصر النَّهضة[5].

أدَّى ما لحق بالكنيسة من تهميش، وما دفع إليه عصر النَّهضة الإنسان ليعيش «لحظته»، واستبعاد الموت من التَّفكيرِ، إلى «تحرير» الفرد ليس من سلطان

1- كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 82، 1984 م، ص170-164.

2- المصدر نفسه، ص 169.

3- المصدر نفسه، ص37.

4- جاك شورون، الموت في الفكر الغربيّ، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 76، ص123.

5- المصدر نفسه، ص 143.

الكنيسة فقط؛ بل ومن سلطان أيّ تقاليد، أو قيود، أو أخلاقيَّات كانت مشتركة بين أفراد المجتمع؛ ليصبح تعظيم الفرديَّة هدفًا للدِّراساتِ الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، وهدفًا، في الوقت نفسه، لماكينة الدّعاية الاستهلاكيَّة[1].

قامت «عقلانيَّة» عصر النَّهضة على أنقاضِ نظرة غيبيَّة وتفسير غيبيّين لشؤونِ الحياةِ والطَّبيعة، فرضتها الكنيسة على النَّاس، وأرادت تلك «العقلانيَّة» أن تثبت أنَّ بإمكان العقل وحده معرفة الحقيقة، وإليه دون سواه يجب أن نرجع في تفسير الظَّواهر الطَّبيعيَّة وحتَّى الإنسانيَّة. وذلك ما ستتبنَّاه نظريَّات علم الاجتماع الَّتي ظهرت إلى الوجود في تلك المرحلة، والَّتي عَدَّت أنَّ فهم الإنسان يجب أن يخضع للمنطق نفسه الَّذي تخضع له دراسات «المادَّة» في العلوم الطَّبيعيَّة والفيزيائيَّة.

ترافقت تلك التَّحوُّلات في طريقةِ التَّفكيرِ، وفي النَّظَرِ إلى مُشْكلاتِ الإنسان بعيدًا من منطق الكنيسة، ومن ضوابط الدّين، والارتباط بالغيب، مع انقلاب في أنماط الحياة في أوروبا. فقد دفع اكتشاف آلة البخار، على سبيل المثال، «الَّتي أصبحت مصدرًا مشتركًا للطَّاقة في الغرب بأسره، إلى تشجيع التَّجمُّعات الصِّناعيَّة الكبرى، وإلى ثورةٍ في حركة المواصلات، وإلى تراكمِ رؤوس الأموالِ، وإلى التَّوسُّع الدِّيمغرافيّ، وإلى انطلاقة مدينيَّة ضخمة»[2].

قد نتج من ذلك نظامٌ مرعبٌ من الحياة في المصانع الَّتي باتت قبلة مئات آلاف القادمين إلى المُدُن «ذلك أنَّ المناجم والورش الصِّناعيَّة كانت رطبةً مزدحمةً يسودُها القهر والاستبداد... وهكذا، بدأ التَّبشير بأخلاقيَّات جديدة، فأصبحت الخطيئة الكبرى وفقها ليست ارتكاب المعاصي، أو القسوة؛ بل البطالة... لقد أصبحت القوَّة شغل النَّاس الجديد»[3].

لم يقتصر الأمر على ذلك المستوى من التَّغيير، أو الانقلاب؛ بل طاول المفاهيم ومناهج التَّفكير؛ ما يُفسّر كيف كانت كل الاتِّجاهات، الفكريَّة والعلميَّة على حدٍّ سواء، الَّتي أبصرت النُّور في عصر النَّهضة، تسعى إلى تأكيدِ الحقائق الثَّابتة الَّتي توصَّلت إليها في معرفة الإنسان، أو في معرفة الطَّبيعة، أو المادَّة. «حتَّى أصبح

1- برتراند راسل، حكمة الغرب، الجزء الأول، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 62 1970م، ص8.

2- Histoire. M. Chaulanges. J.M. D'Hoop. Delagrave. Paris 1979, P.217.

3- برتراند راسل، حكمة الغرب، مصدر سابق، ص 217-216.

كلّ فـرع مـن فـروع المعرفـة يدَّعـي أنّـه علـم: فالقضـاة يتحدَّثـون عـن علـم القضـاء، واللَّاهوتيُّـون عـن علـم اللَّاهـوت، وبمـوازاة علـوم الفيزيـاء والعلـوم الطَّبيعيَّـة تطـوَّرت منـذ القـرن الثَّامـن عشـر علـوم أخلاقيَّـة، وإنسـانيَّة، وسياسـيَّة، واجتماعيَّـة»[1].

إنَّ التَّقُّـدم العلمـيّ، والدِّراسـات التَّجريبيَّـة فـي العلـوم الطَّبيعيَّـة وعلـى الحيـوان، جعل مـن الحقيقـة كلّ مـا يقـع فـي إطـار الحـسّ، أو التَّجربـة فقـط، وأنَّ مـا يحتمـل وجـوده خـارج ذلـك، أو مـا لا يمكـن أن يخضـع للاختبـار، لا يمكـن الرّكـون إلـى حقيقتـه العلميَّـة. ولذلـك السَّـبب، نلاحـظ أنَّ التَّأريـخ لعلميَّـة أيّ «علـم» يبـدأ مـع بداياتـه التَّجريبيَّـة، وليـس قبـل ذلـك.

وهكـذا، سـاد منهـج العلـوم الرِّياضيَّـة والطَّبيعيَّـة والفيزيـاء الَّـذي أراد أن يتوصَّـل مـن خـلال التَّجربـة أساسًـا، إلـى القوانيـن الثَّابتـة الَّتـي تُفسّـر تحـوُّلات تلـك المـادَّة. وقـد تأثَّـرت «العلـوم الإنسـانيَّة» بدورهـا بمنهـج التَّجريـب ذلـك، خصوصًـا أنَّهـا انفصلت عن الفلسـفةِ الَّتـي تهتـمُّ بالكلِّيَّـات، والحكمـة، والحقائـق المطلقـة[2] . وكان ذلـك الانفصـال سببًا فـي توسُّـع ميادين تلـك العلـوم مـن جهـة، وفـي أزماتهـا اللَّاحقـة، مـن جهـة أخـرى. «فقـد تبنَّـت العلـوم الاجتماعيَّـة أنمـوذج العلـوم الطَّبيعيَّـة الَّتـي تنظـر إلـى البشـر علـى أنَّهـم «أشـياء» ينبغـي لنـا تناوُلهـا والسَّـيطرة عليهـا، إلـى حـدٍّ كبيـر بالأسـلوب نفسـه الَّذي تضبـط بـه العلـوم الأخـرى مادَّتهـا غيـر الإنسـانيَّة. وعلـى ذلـك النَّحـو، سـوف ينزلـق العلـم الاجتماعـيّ بنـوع مـن عـدم التَّبصُّـر إلـى ابتيـاع قطـع مـن المعلومـات علـى حسـاب الكبريـاء والاسـتقلال الإنسـانيّ»[3]. وقـد زعـم كثيـر مـن العلمـاء أنَّ الطَّريقـة الفُضْلَـى لفهـم الإنسـانِ هـي النَّظَـر إليـه كمـا لـو كان آلـة، تمامًـا كمـا هـو الحـال مـع فَهْـم الكـون بمجمَلـه... وجميـع تعقيـدات الوجـود البشـريِّ مـن شـأنها أن تُفسّـر، آخـر المطـاف، مـن مُنطلـقِ مبـادئ العلـوم الطَّبيعيَّـة ...[4]. أصبحـت علاقـة الإنسـان بعـد تلـك القطيعـة مـع الكنيسـة والدّيـن مـع نفسـه. فأصبـح هـو الَّـذي يقـودُ ويوجّـهُ ويقـرّر، وتخلَّـى عـن نواهـي الكنيسـة وأوامرهـا، وباتـت مرجعيَّتـه مـا يـراه عقلـه صحيحًـا ومُناسـبًا، ومـا تريـده ميولـه

1- Methodes des Sciences Sociales. M. Grawitz - Paris. Dalloz - 1976, P28.

2- المصدر نفسه، ص 202.

3- ألفـن غولدنـر، الأزمـة القادمـة لعلم الاجتمـاع الغربـيّ، المجلـس الأعلى للثَّقافـة ، القاهـرة،2004م، ص112 .

4- تارناس، مصدر سابق، ص 395.

ورغباته، والدَّوافع الَّتِي تُحرّكه. هكذا توجَّهت العلوم الإنسانيَّة عندما تأسَّست في تلك المرحلة، مثل: علم النَّفس، وعلم الاجتماع إلى ذلك الإنسان الَّذِي قطع صلته مع الدِّين، وتوجّه نحو ما يمكن أن يحقِّق رغباته وأهواءه؛ أي أنَّ تلك العلوم تأسَّست على تلك القطيعة مع الدِّين، «حتَّى أصبحت علاقة الإنسان مع العالَم أكثر أهمِّيَّة من علاقته مع الله، ومع ذاته»[1].

وفي ذلك العصر، «استبدلت فكرة العالَم الَّذِي لا نهاية له، بفكرة عالم مُتناهٍ مُنظَّم، وأصبح بإمكان ذلك العقل أن يُقرّر بنفسه بعض الحقائق اليقينيَّة سواء في ميدان العلم، أو في ميدان الفلسفة»[2].

القطيعة الَّتِي حصلت بين العلم والدين في الغرب، نتج منها تعظيم أولويَّة الفرد والفردانيَّة، الَّتِي سيكون لها تأثيرات مهمَّة على مختلف المستويات: الفكريَّة، والفلسفيَّة، والتَّربويَّة، والاجتماعيَّة، والفنِّيَّة، وسواها. لم يكن للفرد في مرحلة سيطرة الكنسية مثل تلك الأولوية؛ لأنّ الدين يعطي الأولويّة للأسرة وللمجتمع قبل الفرد. عندما انقطعت علاقة الإنسان مع الدين (الله) برز الفرد. وباتت «الحرِّيَّة» الفرديَّة أحد أهمّ تجلِّيات تلك القطيعة مع الدين، خاصَّة «وقد حلّ عقل الإنسان والرَّصد التَّجريبيّ محلّ العقيدة اللَّاهوتيَّة، والوحي الكتابيّ المُقدَّس، بوصفهما الوسيلةَ الرَّئيسةَ لفهم الكون»[3].

لن تبقى تلك التَّحوُّلات من دون تأثير على نظريَّات التَّربية، وعلم الاجتماع، وعلم النَّفس، وسواها من العلوم الإنسانيَّة. فها هي نظريَّات التَّربية الغربيَّة ،على سبيل المثال، تتمحور كلّها حول حرِّيَّة الطِّفل (في مقابل التَّربية الدّينيَّة الصَّارمة) وقد اخُتصر ما عُرف بـ«التَّربية الحديثة» بفكرة أساسيَّة واحدة هي حرِّيَّة الطِّفل.

بدأ مفهوم الحرِّيَّة في أوروبا بطيئًا ليتطوَّر ويتدحرج مثل كرة الثلج، ويطال مختلف أنواع النَّشاطات تحت عنوان الحرِّيَّة:

- الفرديَّة هي مظهر الحرِّيَّة في البُعْد الاجتماعيّ.
- واللِّيبراليَّة هي مظهر الحرِّيَّة في البُعْد السِّياسيّ.
- واقتصاد السّوق هو مظهر الحرِّيَّة في البُعد الاقتصاديّ.

1- M.Grawits, p 202.

2- M.Grawits, p 28.

3- تارناس، مصدر سابق، ص 342.

تلك مظاهر فكرة الحرِّيَّة في ثلاثة أبعاد تُلخِّص التَّحوُّل الَّذِي جرى في أوروبا في مُخْتلفِ المجالات. «وها هو المثل الأعلى في القرونِ الوُسْطَى الَّذِي كانت الهُويَّة الشَّخصيَّة فيه ذائبة إلى حدٍّ كبيرٍ في كتلةِ النُّفوسِ المسيحيَّة الجماعيَّة خبا لمصلحة نمط أكثر بطوليَّة وثنيَّة، لمصلحة الإنسان الفرد بوصفه مُغامرًا، عبقريًّا، ومُتمردًا...»[1]. وحتَّى الإصلاح الدِّينيّ يردّه تارتاس إلى «تلك النَّزعة الفرديَّة المُتمرّدة ضدّ أعلى مرجعيَّات الغرب الثَّقافيَّة، ضدّ كنسية روما الكاثوليكيَّة»[2].

انهيار «الوعد العظيم»

أدَّت الثَّورة الصِّناعيَّة الَّتِي حصلت في بريطانيا بعد النّصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر، واستمرَّت باكتشافاتها المُتعدِّدة ما يقرب من مئة عام حتَّى منتصف التَّاسع عشر، إلى تغييرات عميقة تبدَّلت معها القيم: الفرديَّة، والاجتماعيَّة، والأُسَريَّة.

فقد نتج من توسُّع المصانع، وتنوُّع طُرُق الإنتاج والسّلع، والحاجة إلى أسواق جديدة خارج أوروبا في بلدان المستعمرات، تدفّق العمَّال من ضواحي المُدُن والأرياف بحثًا عن فرص عمل في المصانع الجديدة، في الوقت الَّذِي بدأت فيه المُدُن تتشكّل بوصفها عواصم ماليَّة، وتجاريَّة، وصناعيَّة. كما جذبت المصانع أفراد العائلة كافة؛ الأولاد، والمرأة، والرجل. وكان من الطَّبيعيّ أن يؤدِّي ذلك إلى تشتُّت الأُسْرة، في ظلِّ قوانين عمل كانت لا تزال جائرة وتعسُّفيَّة، وأن يشعر الأطفال خاصّة بالحرمانِ من الرِّعايةِ الوالديَّة المُنَاسبة؛ ما أدَّى فيما بعد إلى ولادةِ دُور الحضانة، وإلى بروز حالات انحراف، وجنوح مبكر عند الأولاد.

أدَّت الرَّغبة في زيادةِ الإنتاج الَّتِي باتت الآلات الحديثة توفّرها بوتيرةٍ مُتَصاعدة، إلى تأثيرات اجتماعيَّة، واقتصاديّة، وسياسيَّة؛ ستغّير نمط الحياة والقيم ليس في المجتمعات الأوروبيَّة فقط؛ بل وفي معظم مجتمعاتِ العالم:

- فقد تحوّل التّطوُّر في سُرعةِ إنتاج السّلع المختلفة إلى منافسةٍ حادّةٍ بين أصحاب المصانع للوصول إلى الأسواق وإلى المستهلك؛ ما أدَّى إلى ابتكار كلّ الوسائل الَّتِي تحقّق الفوز والغلبة في تلك المنافسة، فتطوَّرت فكرة الإعلان، وتوسّعت الدِّعاية، وتنوّعت وسائلها وأساليبها في الإقناع،

1- تارناس، مصدر سابق، ص 272 .

2- المصدر نفسه، ص280 .

وإثارة الرّغبة في الشِّراء، وأصبحت علمًا وفنًّا وتخصُّصًا يتوجَّه إلى دراسة خُصُوصيّاتِ السِّلعة والمستهلك في آن. وتحوّلت القيم المُجْتَمعيَّة إلى قيم الشّراء والاستهلاك والتَّملُّك. وأصبحت «قيم الاستهلاك والمنافسة والقوّة شُغْل النَّاس الجديد»[1].

- أدَّى تطوُّر الإنتاج وسرعته إلى البحث عن أسواق جديدة خارج أوروبا؛ ما أسهم بشكلٍ رئيس في تحريكِ الحملات الَّتي قادتها أوروبا خارج حدودها لاحتلال أراضٍ جديدة، كان الهدف منها فتح أسواق إضافيَّة لمنتجات مصانعها، وجذب مُسْتهلكين جُدُد إليها، ووضع اليد على ثرواتِ تلك البلدان لاستخدامها في دورةِ إنتاجِ المصانع الأوروبيَّة.

ستترك تلك التَّحوُّلات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة تأثيراتها المباشرة على العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، وعلى طرائق تلك العلوم النَّظريَّة والتَّجريبيَّة وأبحاثها. ففي علم النَّفس، على سبيل المثال، سوف تتحوَّل الدِّراسات إلى خدمةِ المصانع الَّتي ترغبُ في تحقيقِ أفضل الشُّرُوط لمُضاعفةِ الإنتاجِ بأقلّ قدرٍ ممكن من التَّكاليف. ولذا، فإنَّ «تمويل الكثير من بُحُوثِ علم النَّفس الصِّناعيّ تقوم به إدارة المصانع؛ لأنَّها تعتقد أنَّ ذلك يمكنها من تحسين أدائها لوظيفتها..»[2].

يُحدِّد كوسنييه في كتابه «مُقدِّمات في علم النَّفس» دور عالِم نفس العمل، مشيرًا إلى الخدمات الَّتي يُقدِّمها إلى الرَّأسماليِّين وأصحاب المصانع. كما أصبحت الدِّراسات النَّفسيَّة والاجتماعيَّة شريكًا ضروريًّا في حملاتِ الإعلان والدِّعاية؛ لأنَّ التَّنافُسَ في جَذْبِ المستهلك و«إقناعه» بهذه السّلعة أو تلك، يحتاج إلى ما يعرفه علم النّفس من عناصر التَّشويق والإثارة، ومن غرائز الإنسان ورغباته. خصوصًا أنَّ التَّرويج الإعلانيّ يتوجّه إلى عقل الإنسان تارةً، وإلى رغباته وعواطفه وأحلامه تارةً أخرى. كما نشأت في أميركا الاختبارات العقليَّة في علم النَّفس، نظرًا إلى سيادة الاهتمام بالفروقِ الفرديَّة الَّتي تميَّز بها علم النَّفس الأميركيّ. ولم يكن لذلك الاهتمام أن يَسُودَ لولا رغبة السُّلطات الأميركيَّة في حمايةِ نقاوة «العرق الأميركيّ»الَّذي تهدّده جموع المهاجرين الَّتي تتدفَّق إلى أميركا، ولولا حملات

1- عبد الله العمر، ظاهرة العلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 1983-69م، ص182.

2- المصدر نفسه، ص68.

الاضطهـاد ضـدّ الأقلِّيَّـات العُرقيَّـة والدِّينيَّـة[1].

عندمـا وضـع دوركايـم الأُسُـس الإيبسـتمولوجيَّة (الموضـوع، والمفاهيـم، والمنهـج، والنَّظريَّـة) لتأسـيسِ علـم الاجتمـاع، «كان مُتأثِّـرًا بتلـك التَّحـوُّلات العميقـة فـي المجتمـع الأوروبـيّ، فـكان الهاجسُ السِّياسيِّ (صعـود الجمهوريَّـة الثَّالثـة)، والهاجـس الاقتصـاديّ (صعـود البُورجوازيَّـة) والهاجـس الاجتماعـيّ (الأزمـة الاجتماعيَّـة) حاضريـن بقـوَّة فـي ذهنِـه، وفـي خياراتِـه المعرفيَّـة»[2] .

شـكَّلت الأزمـةُ الَّتِي عمّـت أوروبـا وأميـركا، مُنعطفًـا جديـدًا فـي الحيـاةِ الغربيَّة «فقد بـدت النَّتائـج السَّـيّئة للصِّناعـة الكبـرى: أزمـة تضخُّـم الإنتـاج والإفلاسـات، وزيـادة عـدد السُّـكَّان، والجمـود الرِّيفـيّ، ونهـوض طبقـة مـن الرَّأسـماليِّين الصِّناعيِّـين، وتكويـن طبقـة العُمَّـال»[3].

جـاء القـرن العشـرون ليمـزّق ذلـك التَّفـاؤل إربًـا عبـر معسـكراتِ المـوت، وفـرق المـوت، وعبـر العسـكرة، والحربيـن العالميَّتيـن، وخطـر الفنـاء النَّـوويّ، وتجربتـه بالفعل فـي ناكازاكـي وهيروشـيما؛ بـل إنَّـه تضمّـن، وعلـى نَحْـوٍ أسـوأ، أن يكـون مشـروع التَّنويـر قـد حكـم عليـه أن يتحـوَّل إلـى عكـس مـا يعلنـه. وأنْ يُحِيـلَ مطلـب التَّحـرُّر الإنسـانيّ إلـى نظـام اضطهـادٍ عالميٍّ باسـم تحريـر البشـر[4].

وإذا وَضعنـا أمـام ناظرينـا تلـك الأزمـة الاقتصاديَّـة، ومـا نتـج مـن الحربيـن العالميَّتيـن مـن دمـارٍ ومـآسٍ وملاييـن الضَّحايـا، والتَّهديـد بالفنـاء النَّـوويّ، أدركنـا حجـم الصَّدمـة النَّفسـيَّة الَّتِي أُصِيـبَ بهـا الفـرد الأوروبـيّ، وحجـم الأزمـة الَّتِي مزّقتـه وصدّعـت المجتمـع، والَّتِي أصبحـت مـادَّةً أساسـيَّةً فـي الدِّراسـاتِ الإنسـانيَّة، بحثًـا عـن ذلـك التَّـوازُن المفقودِ بيـن الإنسـان وذاتِـه، وبينـه وبيـن المجتمـع. فقـد خلّفـت تلـك الحـروب ملاييـن القتلـى والجرحـى والمعوقيـن، ومئـات الآلاف مـن الأرامِـلِ والمُشـرَّدين، وصراعـات سياسـيَّة وعسـكريَّة مُخيفـة، ونزعـات عنصريَّـة دمويَّـة، تُوِّجـت بأزمـةٍ اقتصاديَّـةٍ خانقـة حطَّمـت

1- كلود دلماس تاريخ الحضارة الأوروبيَّة، منشورات عويدات، بيروت، 1970م، ص69.

2- جيوفانـي بوسـينو، نقـد المعرفـة فـي علـم الاجتمـاع، المؤسَّسـة الجامعيَّـة للدراسـات والنشـر، بيـروت، 1995م، ص 7.

3- برتراند راسل ، حكمة الغرب، مصدر سابق. ص 292-291.

4- ديفيـد هارفـي، حالـة مـا بعـد الحداثـة، بحـث فـي أصـول التغييـر الثَّقافـي، المنظَّمـة العربيَّـة للترجمـة، بيـروت 2005م، ص31.

ما تبقَّى من ذلك «الوعد العظيم» الَّذِي دغْدَغَ الأحلام مع بدايةِ عصر العلم والاكتشافات، وتسيّد العقل، واستبعاد الدِّين. «فقد انهار هيكل القيم والأفكار المُسبقة مع اندلاعِ الحرب العالميَّة الأولى (1914م ـ 1918م) وأدَّى ذلك إلى إغراقِ العالم في بحرٍ من الدّماءِ لم يُعْرَفْ له حتَّى ذلك الحين مثيلًا. واقترن بتلك الكارثة انهيَار للثِّقة في التَّقدُّم ، ونُمُوّ جوّ من الشَّكِّ والارتياب لم يفقْ منه العالم تمامًا حتَّى وقتنا هذا»[1].

ها هو يونغ Yung، العالم والمُحلِّل والنَّفسانيّ الشَّهير يذهب إلى أبعد من ذلك الانهيار، وإلى انعدامِ الثِّقةِ بكثير، عندما يعتقدُ أنَّ تلك الأزمة «تعود إلى انفصالنا عن الرُّوح، وعن عالم ما وراء الطَّبيعة فلا توجد ثقافة، أو حضارة قبلنا كانت مُضطرَّة أن تأخذَ تلك التَّيَّارات النَّفسيَّة الخفيَّة بالاهتمام البالغ. كانت الحياة النَّفسيَّة تجد التَّعبير عنها في نُظُم ما وراء الطَّبيعة بطريقةٍ مَا».

«وإنَّ الإنسانَ طالما يعيشُ جزءًا من جماعةٍ فلا توجدُ له مسائل الرُّوح الخاصَّة، ولا يحتاجُ إلى أكثر من العقيدةِ المعتادة لِخُلُودِ النَّفس، ولكن بمجرّد نُمُوِّه خارج نطاق الدّيانَة المَحلِّيّة ـ مهما كانت تلك الدِّيانة الَّتِي وُلِدَ فيها ـ بمجرَّد ألَّا يصبح ذلك الدّين شاملًا لحياتِه بالتّمام، حينئذ تصبحُ النَّفسُ شيئًا بذاته لا يمكن أن يتعامَلَ معها بالإجراءاتِ الطَّقسيَّة وحدها».

«لهذا، فإنَّ علم النَّفس اليوم مُؤسّس على المعاناة، وليس على تعاليم العقيدة، أو مفروضات أيّ نظام فلسفيّ، ومجرّد وجود علم نفس عرض لهزَّةٍ عظيمةٍ في حياتنا الرُّوحيَّة»[2].

لقد ساد الاعتقاد أنَّ العالم المثاليّ، ما بعد المسيحيَّة والدّين، عالم الحداثة الجديد سيتحقَّق بمجرّد اكتساب معلومات كافية، ومعرفة كافية، ومهارات تكنولوجيَّة كافية، فالتَّغيير مسألة وقتيَّة حتّى نبني عالمًا لن يحتاجَ إلى تغيير بعد ذلك... فالافتراض الأساس عند دُعاة التّنوير أنَّه كلَّما زاد التَّعليم زاد معه التَّسامح والعقلانيَّة بالضَّرورة... لكن ثبت أنَّ ذلك الافتراض كان طوباويًّا، وأنَّ الأيديولوجيَّات العلمانيَّة (الَّتِي قادت الحربين العالميّتين) سفّاكة للدِّماء، مثل:

1- M.Chaulanges, p 47-58.

2- برونوفسكي، مصدر سابق، ص213.

الرَّجعيَّـة الدِّينيَّـة المُتعصِّبـة[1].

توسَّعت الدّراسات في العُلُوم الإنسانيَّة عمومًا، وفي علم النَّفس وعلم الاجتماع بشكلٍ خاص في محاولة لتفسيرِ ما يجري في هذا العالم «الجديد»، وتعدَّدت ميادينِ البحث واتِّجاهاته في أُسُس الشَّخصيَّة وتماسُك المجتمع، واختلفت المفاهيم في أصل الدَّوافع عند الإنسان، وفي علاقة الفرد بالجماعة، وفي تحديد المرض والسّواء... بعدما أدَّت التَّطوُّرات المُتَسَارِعَة والمُتعجّلة إلى «تفكيكِ العلاقاتِ الثَّابتة بين الإنسانِ والدولةِ والمجتمع، ثمَّ تفكيك المجتمع، وقد تغيّر بعض العناصر تغيّرًا كبيرًا؛ بينما بعضهم الآخر قد تغيّر نسبيًّا»[2].

في ذلك الإطار من التَّحوُّلِ الفكريِّ والمعرفيِّ، بعدما استبعد الدّين عن منظومةِ الحياةِ والتَّفكير، واستبدل بمرجعيَّة العقل ستُرفع الحرِّيَّة إلى مقام التَّقديس، وسيصبح التَّداخُل والتَّفاعل بين العقل والحرِّيَّة السِّمة الأبرز لعصرِ النَّهضة الَّذي ستتخلَّصُ فيه النّتاجات التَّربويَّة والفنِّيَّة والاجتماعيَّة والأسريَّة تدريجيًّا، وبذريعة قُدسيَّة الحرِّيَّة الفرديَّة، من كلِّ القيود والضَّوابط الَّتي كان الدّين قد فرضها على المجتمع. وسنشهد مع بداياتِ هذا العصر كيف ستتخلَّص التَّربية ونظريَّاتها من قيودِها وضوابطِها الأخلاقيَّة؛ لتصبح حُرِّيَّة الطفل هي أساس التَّربية. وسنلاحظ أيضًا كيف ستنتشرُ في الرُّسُوم الفنِّيَّة لوحات العري ردًّا على مرحلةِ الاحتشام الدِّينيّ الأخلاقيّ الكنسيّ. وكيف سيبدأ التَّنظيرُ في الأدبيَّات النَّفسيَّة والاجتماعيَّة لتَحريرِ الطَّاقاتِ والرَّغباتِ، وستصبح قيمة العمل المنتج ماديًّا هي القيمة العُليا للرجل وللمرأة على السَّواء. وستتراجعُ وظيفة الأُمُومة؛ لأنَّها تحدُّ من حرِّيَّة المرأة، ولأنَّها غير مُنتجة ماديًّا. كانت تلك التَّحوُّلات بداية مسار، أو نفق سيدخله الغرب منذ نهايات القرن الثّامن عشر، تقودُه الرَّغبة في التَّملُّك والاستهلاك إلى جانبِ تقديس الحرِّيَّة الفرديَّة.

إنَّ العالم الَّذي يهمينُ عليه الاقتصاد بشكلٍ تامٍّ، «حيث تُقدّر أيّ قيمة بحسب المال الَّذي تربحه» هو نتاج فكر تنمويّ تمَّ التَّرويج له في السِّتّينيَّات، «وجوهر ذلك الإرث هو أنّ ما هو أكثر، أفضل بالضَّرورة ممَّا هو أقلّ، وأن تنمو يعني أن تتقدَّم، وبغضِّ النَّظَر عمَّا يريدُ الفرد، أو يرغبُ فيه، أو يؤمنُ به، فإنَّ الأفضلَ له هو

1- حجاج أبو جبر، نقد العقل العلمانيّ، دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السِّياسات، بيروت 2017م، ص189-188.

2- ألفن غولدنر، مصدر سابق، ص35 .

الحُصُول على أكبر قدرٍ ممكن من تلك الحاجات، أو الرَّغبات، أو المُعتقدات». صار ذلك الإيمان بالنُّموّ بوصفه خيرًا ـ في حدِّ ذاته ـ حيث حاول علم النّفس الإنسانويّ كما طوَّره أبراهام ماسلو وكارل روجرز، إعادة توجيه علم النَّفس ـ والمجتمع ككلّ ـ بحيث يبتعدان عن مبادئ الاعتياديَّة، ويتجهان نحو السَّعي إلى تحقيقِ إنجاز يفوقُ ما عداه[1].

لن يقتصر الأمر على ذلك المنظُور التَّنمويّ لـ «ما هو أكثر، أفضل ممَّا هو أقلّ» والَّذِي لا يعني سوى المزيد من التَّملُّك، ومن الاستهلاك للحُصُولِ على المزيد من الأشياء...؛ بل سينشأ علم خاص لذلك التَّحريض على الشِّراء، سيربط بين الشِّراء والتَّملُّك وبين السَّعادة هو «علم اقتصاد السّعادة» وسيوظّف عدد مُتزايد من الشّركات «مديرين للسّعادة»، وستنشأ تخصُّصات أكاديميَّة، مثل: «علم نفس المستهلك» من أجل فهم كيفيَّة استجابة الأفراد وانفعالاتهم لإعلانات مختلفة... «ولو أرّخنا لبداية علم النَّفس الحديث بالعام 1879م، فما هي إلَّا عشرون عامًا أخرى قبل نشوء حقل «علم نفس المستهلك». ومِنْ ثَمَّ، نحنُ بحاجةٍ إلى فحص تاريخ علم النّفس، والنّزعة الاستهلاكيَّة بوصفهما مشروعين مُتشابكين»... وقد أسفر الكثير من التَّقدُّم التّقنيّ عن طفرةٍ علميَّةٍ داخل منظومة أبحاث السُّوق «على أساس أنَّ الاستهلاك هَو ما يولّدُ الرفاهية العقليَّة العظمى»[2].

أمَّا ما يمكنُ ملاحظته من ذلك التَّوسُّع في تلك الميادين، فهو الأساس المَرَضيّ غيرِ السَّويّ، الفرديّ والاجتماعيّ، الَّذِي توسّعت العُلُوم الإنسانيَّة في ظلّه بحثًا عن حلٍّ للمشكلاتِ المُستجدَّة بعد انهيار «الوعد العظيم»، وبعد القطيعة مع السَّماءِ في المُجتمعِ الأوروبيّ.

كانت كلّ المفاهيم الَّتِي سيطرت على الدِّراساتِ الإنسانيَّة، وإلى نهاياتِ القرن العشرين مفاهيم صراعيَّة، تستندُ إلى المرضِ قبل السَّواء، وتجعل من تجربةِ الإنسان الأوروبيّ، بمشاكله ومعاناته، أنموذجًا للتَّجربةِ الإنسانيَّةِ في كلِّ مكان، «فنظريَّات الشَّخصيَّة عمومًا نظريَّات قائمة على الصّراع، وفيها يكون الصِّراعُ بين قوَّتين مُتضادَّتين لا سبيل إلى الالتقاءِ بينهما»[3].

1- ديفيز، مصدر سابق، ص 138.

2- المصدر نفسه، ص 14-15.

3- إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 140 - 1989م، ص13.

ولذلك، لم تتمكَّن تلك الدِّراسات في المجالات الإنسانيَّة من تهدئة القلقِ الإنسانيِّ، أو معالجة جذوره، ولم تتمكَّن من تقديم إجاباتٍ واضحة ومقنعة إلى ذلك الجيل البائس الَّذي لجأ إلى «النَّفسانيَّات» هَربًا من مادِّيَّاتِ الحياة الَّتي سلبته الهدوء والطُّمأنينة. وفي ذلك يعتقدُ يونغ أنَّ النُّموَّ السَّريع للاهتمام بالنَّفسيَّات على مدى العشرين سنة الأخيرة يُبيِّن بلا خطأ أنَّ الإنسان الحديث –إلى درجةٍ ما– قد حوَّل انتباهه من الأشياءِ المادِّيَّةِ إلى العمليَّاتِ النَّفسيَّةِ في داخله[1].

أزمة فهم الإنسان

بدأت مُكوّنات الأزمة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة عندما أرادت تلك العلوم تطبيق مناهج العلوم الطَّبيعيَّة على دراسةِ الإنسان، فاضطرّت إلى تجزئته وإلى تغييب عناصر التَّأثير غير الملموسة على سلوكه وشخصيَّته. وفي عرض مُبكّر لأزمة علم النَّفس المعاصر، على سبيل المثال، ألقى وليام هدسون خطابًا في الاجتماعِ السَّنويّ للجمعيَّةِ النَّفسيَّةِ البريطانيَّةِ الَّذي انعقد في منتصف نيسان/أبريل العام 1970، أشار فيه إلى الفجوة الَّتي تزدادُ اتِّساعًا بين هذا العلم ودارسيه من الشُّبَّان الَّذين «يتوقَّعون أن يتعلَّموا شيئًا عن أسباب عدم إنسانيَّة الإنسان حيال الإنسان، ونحن نُعلِّمهم أمورًا تتعلَّق ببناءِ الاستبيانات وشهيّة فئران، أو خنازير التّجارب. إنّهم يريدون أن يتعلَّموا شيئًا عن الرُّوح الإنسانيَّة والفعل الإنسانيّ، ويبحثون عن حيويَّة الموضوع بكلِّ ما تحويه تلك الكَلمة من معنى، ونحن نودّ أن نعلّمهم صرامة البحث العلميّ»[2].

كما يعدّ «مارك بيليسوك» في مقال له نُشِرَ في المرحلة نفسها من العام 1973 بعنوان «الحقيقة والوهم في الاستفادةِ من المعرفةِ الَّتي تُتيحُها العلوم الاجتماعيَّة»: «ترى لماذا يقوم علماء النَّفس بكتابة المؤلَّفات الَّتي يستفيدُ منها رجال البوليس في التَّحكُّم في سلوك المقبوض عليهم؟ لماذا لا يحدثُ العكس؟ إنَّه لتساؤل هامّ وخطير»[3].

1- الكتاب السَّنويّ للجمعيَّة المصريّة، مصدر سابق، ص172.

2- Hudson, L. "The choice of Hercules". Bull. Br. Psycholo. Soc. 1970-23 P.287-292.

3- Pilisuk. M. "Fact and fiction in the utilization of social science knowledge" J. Social Issues, 1973. 29 (1) P. 123-132.

إنَّ علم النَّفس اليوم يعاني من مزيد من النَّقد؛ «لأن تاريخه منذ خمسين عامًا لا يبدو سوى سلسلة مُتعاقبة من الانتقادات: من انتقاد المدرسة المُسمَّاة علميَّة لعلم النَّفس الفلسفيّ القديم، إلى انتقاد اتباع فوندت Wundt لعلم النّفس «العلميّ»، وانتقاد «علم نفس العناصر» الَّذِي يعدُّ نفسه ديناميكيًّا لعلم نفس العناصر الميكانيكيّ. ثمّ انتقاد «علم نفس العناصر» عمومًا. وانتقاد علم نفس «الدّلالة» لعلم نفس ما فوق «الدّلالة». وانتقاد علم نفس الوعي لسيكولوجيا النّفس. وأخيرًا، انتقاد علم النَّفس الَّذِي لا يقرُّ بالوعي، ولا بالحياةِ الدَّاخليَّة لعلم نفس الوعي»[1].

إنَّ سلسلة الانتقادات تلك الَّتِي اتَّسم بها تاريخ علم النَّفس ونظريَّاته لا تُعبِّر عن أزمةٍ في المنهج، أو في الدّلالة على الحدث فقط؛ بل عن أزمةٍ في رؤيةِ الإنسانِ رؤيةً شموليَّةً. وتنطبقُ تلك السِّلسلة من الانتقادات على علم الاجتماع، وعن أزمته القادمة الَّتِي كتب عنها ألفن جولدنر «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربيّ» في العام 1970م (صدرت ترجمته بالعربيَّة عن المجلس الأعلى للثَّقافة في مصر 2004م).

لقد حجبت الرَّغبة في العلميَّة والموضوعيَّة على غرارِ العلوم الطَّبيعيَّة، وما يجري في المختبرات من التَّعامُل مع «المادَّة»، إنسانيَّة الإنسان، ولم تلتفتْ تلك الرّغبة في الموضوعيَّة إلى «أنَّ حياة الإنسان الفكريَّة، وحياته الأخلاقيَّة، وحياته الروحيَّة، هي حقائق تمامًا مثل حياته البيولوجيَّة»[2].

لم تلحظ تلك المدارس في علوم النّفس والاجتماع على الرّغم من التَّنوُّع في مناهجها، تلك الخصوصيَّة الإنسانيَّة من تدفُّق المشاعرِ وتأثيرات الأخلاق، والعاطفة،

1- حفني، مصدر سابق، ص12.

2- حفني المصدر نفسه، ص89. راجع أيضًا «علم النَّفس الإنسانيّ» إعداد: فرانك. ت. سيفرن، ترجمة طلعت منصور، عادل عز الدين، فيولا البيلاوي، منشورات مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة 1978م. والكتاب عبارة عن قراءات تُمثِّل اتِّجاهًا حديثًا في علم النَّفس، ويهتمّ بوصفه «قوَّةً ثالثة» في علم النّفس المعاصر بالميل إلى الكشف عن الجوانب الجديدة للسُّلوك الإنسانيّ. «والعالم الإنسانيّ هو أي شخص يرفض محاولة وصف الإنسان، أو تناوله على أساس علم الطَّبيعة، والكيمياء، والسُّلوك الحيوانيّ... وباختصار، العالم الإنسانيّ هو أيّ شخص يقرّر أنّ هنالك أشياء في السَّماوات والأرض أكثر ممَّا يحلم به في الفلسفة الوضعيَّة... أنَّ الاتِّجاه الإنسانيّ في علم النّفس، بوصفه ردّة فعل على تجزئة الإنسان...».

وأهمِّيَّة البُعْد المعنويّ في السُّلوك الإنسانيِّ. «وقد أفضى إخضاع العقل للغريزة في طريقة التَّحليل النَّفسيّ، وإلغاء العقل في السُّلوكية، إلى تجريد الإنسان من إنسانيَّته، وهذا موقف لا يطاقُ في فرع من فروع المعرفة مكرَّس لخدمة الجنس البشريِّ»[1].

السُّوسيولوجيا دين جديد

في تلك البيئة من هيمنة «العقل العلميّ»، ومن تراجع ثقافةِ الدِّين المرجعيَّة، نمت العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيّة، وتوسَّعت آفاقها للبحث عن حلّ لمشكلات الإنسان الَّتِي تولَّدت عن مجتمع الصِّناعة الجديد، وعن غياب مرجعيَّة الدِّين الَّتِي شكّلت لحمة المجتمع في ما مضى.

«لقد فقدت المؤسَّسات الكبرى (الدولة، والكنيسة، والعائلة، والمدرسة) نفوذها على مصير الأشخاص. ويبدو أنَّ المجتمع بِوصفهِ مجموعةً مُبعثرةً مسكونةً بزمر من الأفراد هم أنفسهم يتَّصفون بالتَّشتُّت»[2].

هكذا، سيبحث أوغست كونت، على سبيل المثال، (1798م ـ 1857م) عن «دين جديد» للبشريَّة، يستند إلى «الحقائق العلميَّة»، وهو مبتكر ما عُرِف (بعلم الاجتماع: السُّوسيولوجيا) وقد بدأ بما سمّاه «فيزياء اجتماعيَّة» قبل أن يُغيّر التَّسمية إلى علم الاجتماع، وقد أراد أن «يضع علمًا» جديدًا للمجتمع مثل ما هو الحال في العالم الطَّبيعيّ. وكان ينبغي لعلم الاجتماع بالنِّسبة إليه أن يطبّق المنهجيَّات العلميَّة الصَّارمة نفسها في دراسة المجتمع كما هو الحال في الأساليب الَّتِي تنتهجها الفيزياء والكيمياء في دراسة العالم الطَّبيعيّ. لماذا فكّر «كونت» بتلك الطريقة؟ لأنَّه اعتقد أنّ تلك الطَّريقة هي المرحلة النِّهائيَّة والمُتقدِّمة في التَّفكيرِ البشريِّ لفهمِ العالم الَّذِي مرَّ بثلاثة أطوار: اللَّاهوتيّ، والميتافيزيقيّ، والوضعيّ.

- في الطَّور اللَّاهوتيّ كان الفكر الإنسانيّ، بالنِّسبة إلى «كونت»، مسيرًا بالأفكار الدينيَّة، وأنَّ المجتمع هو تعبير عن إرادةِ الله. ذلك العصر هو مرحلة الطّفولة البشريَّة ، يفترض فيه الذّهن وجود كائنات خارقة للطَّبيعة (الآلهة)، أو وجود إله واحد، وهو زمن المعتقدات السِّحريَّة، والأرواح، والأديان...إنّه زمن ما قبل الرّشد الإنسانيّ.

1- روبرت أغروس، مصدر سابق، ص85.

2- كابان، مصدر سابق، ص 272 .

- الطَّور الميتافيزيقيّ، أو المجرَّد abstrait هو عصر شباب الفكر، بعد مرحلة الطُّفولة الفكريَّة، وفيه يتخلَّى الذّهن عن العوامل الخارقة للطَّبيعة، مثل: الآلهة، والأديان، ويستبدلها بقوى مجردة، مثل: الطَّبيعة عند سبينوزا ، أو العقل في عصر الأنوار.
- أمَّا الطَّور الوضعيّ فهو مرحلة «النُّضج» أو ما يُسمِّيه «كونت» «المرحلة الرُّجوليَّة لعقلنا». الَّذي دشنته اكتشافات كوبرنيكوس وغاليليه ونيوتن، الَّتي شجّعت تطبيق الأساليب العلميَّة على غرار الفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء في دراسة العالَم الاجتماعيّ. في ذلك العصر، تتمُّ المعرفة من خلال اللُّجُوءِ إلى الواقع واختبار التَّجربة. وذلك هو المبدأ الأول في الوضعيَّة، الَّتي ستصبح أحد أكثر التَّيَّارات الفكريَّة أهمِّيَّة في القرن التّاسع عشر. وبحسب ذلك التَّيَّار، يجب أن تنتهي مرحلة الذّهن الميتافيزيقيّ (الدين) الَّذي يضع تصوُّرات أبديَّة كونيَّة لا يخضعها للواقع. ويجب «أن تصبح الفيزياء الاجتماعيَّة (السوسيولوجيا لاحقًا) علمًا وضعيًّا؛ لأنَّها تسمح بمعرفة قوانين تنظيم المجتمع (السكون الاجتماعيّ) وقوانين تطويره (الدِّينامِيَّة الاجتماعيَّة)»[1].

سعى «كونت» إلى وضع علم جديدٍ للمجتمع لتفسير القوانين الَّتي تُنظّمُ حياة العالَم الاجتماعيّ مثلما هي الحالُ في العالم الطَّبيعيّ سمّاه «دين الإنسانيَّة»، الَّذي يقوم على الميل عن الإيمان القطعيّ بالعقيدة، إلى الارتكاز إلى المبادئ العلميَّة. وسيكون علم الاجتماع بالنِّسبة إلى كونت «بمنزلة النّواة لذلك الدّين الجديد». وقد اعتقد «كونت» في سُلطةِ العلم الَّذي يمكن أن يعيد تأسيس الاتِّفاق الاجتماعيّ المفقود، ويجعل المجتمع كلًّا من جديد[2].

إنَّ مثل ذلك التَّصوُّر الَّذي يقدمه «كونت» عن تطوُّر التَّفكير البشريّ من الدّينيّ إلى الوضعيّ، وعن دراسة المجتمع مثلما ندرس الفيزياء والكيمياء، ما هو إلَّا نتاج تلك التَّحوُّلات الفكريَّة والعلميَّة (القطيعة مع الدين) من أصل الأنواع وخلق الطَّبيعة للإنسان (دارون) إلى أنّ الكون غير مخلوق، ولا علاقة له بالسَّماء (نظريَّة الفيزياء).

1- كابان، مصدر سابق، ص 26.

2- ألفن غولدنر، مصدر سابق، ص207.

لقد تأسَّس العلم الغربيّ في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة على ذلك الاعتقاد بقدرة العلم على أن يحلّ محلّ الدِّين. وعلى محاولة فهم التَّحوُّلات الَّتي تجري في المُجْتَمَعاتِ الغربيَّة. لكن نظريَّات ذلك العلم الغربيّ ستدّعي لاحقًا أنَّها نظريَّات لفهم سلوك الإنسان وتفسيره في أيِّ زمان ومكان، وفي أيِّ مجتمع .

يقول «سان سيمون» أحد مُؤسِّسي العُلوم الاجتماعيَّة: «كنت آمل أن تبلغ العلوم الإنسانيَّة وحدة العلوم الطَّبيعيَّة وانتظامها». كان «سيمون» شغوفًا بقانون نيوتون في الجاذبيَّة. وكان يرى أنَّ العلم هو مجموعة، أو طائفة من الاعتقادات المُحقّقة والثَّابتة الَّتي يمكن أن تحلَّ مكان الدين بِوصفه قوَّةً تُقدِّم نظرةً مُتماسكةً للكونِ وللوجود الإنسانيِّ. ومِنْ ثَمَّ، يُوحّدُ البشر على أساس من الحقائق المشتركة. وهكذا، يؤدِّي العلم وظيفة الدين بوساطة النّزعة الوضعيَّة، أو تطبيق المبادئ العلميَّة على كلِّ الظَّواهر الطَّبيعيَّة والإنسانيَّة.

هكذا كان طموح أحد مُؤسِّسي العلوم الاجتماعيَّة: «أن يأتي العلم ويحلّ محلّ الدين»؛ لأن الدين كان منظومةً كاملةً، فأراد استبدالها بمنظومةٍ كاملةٍ مغايرة هي العلم. تلك هي نقطة الانطلاق. «إلغاء المفاعيل المباشرة لمشيئة السَّماء، ووجوب إخراج ملكوت العقل والعلم، من دائرة اللَّاهوت...»[1].

بعد وفاة سان سيمون، بدأ تلاميذه في إلقاء سلسلة من المحاضرات، وظلّ كلّ منهم يدور حول سؤال من هو عالِم الاجتماع؟ وفي النّهاية، أوضحوا جميعًا أنّهم يميلون إلى تأسيسِ ديانةٍ جديدة، «ديانة الإنسانيَّة»، وأنَّهم يعتقدون أنَّ علماءَ الاجتماع يمكن أن يكونوا قساوسة في تلك الدِّيانة الجديدة. باختصار، نُظِرَ إلى عالم الاجتماع في البداية بوصفِه قسِّيسًا... وقد توّج كلّ من سان سيمون وأوجست كونت مَهَمَّتهما العقليَّة باقتراحِ تصوُّراتٍ تفصيليَّةٍ وتقديمها لديانةٍ جديدةٍ للإنسانيَّة[2].

ما سمات ذلك العالَم الَّذي سيَخرج من دائرةِ اللَّاهوت إلى ملكوتِ العقلِ والعلم؟ وما الوعدُ الجديد الأفضل الَّذي سيقدِّمه ذلك العالَم للإنسان بدل الوعد الدينيّ الَّذي عاشه ذلك الأخير طَوال قرونٍ طويلةٍ من السِّنين؟

لم تتَّفق رؤى المفكِّرين والباحثين الغربيِّين في ذلك العالَم الجديد. وفي كيفيَّة اقتفاء آثار العلوم الطَّبيعيَّة، وتقليد الفيزياء، وتَنْحِية الميتافيزيقيا جانبًا. وهو ما أُطلق

1- تارناس، مصدر سابق، ص230.

2- ألفن غولدنر، مصدر سابق، ص73 و236.

عليه عالم الحداثة، أو عصر الحداثة. لكن ستتقاطعُ رؤى أولئك المفكِّرين عند عَدّ الحداثة عمليًّا دعوة إلى فصلِ الواقع عن القيم، وإلى «الاستخدام المنفصل للعلم والتّكنولوجيا عن القيم». «ولا تهدفُ الحداثة إلى استقلالِ العلم والتكنولوجيا عن الذَّاتيَّة الإنسانيَّة، أو إلى فصلِ الكنيسةِ عن الدَّولة فحسب؛ بل إلَى فصل كلِّ القيم ـ دينيَّة، أو أخلاقيَّة، أو إنسانيَّة ـ عن الحياة العامَّة والخاصَّة، وعن العالم بأسره، لا عن الدَّولة وحدها؛ إنَّها تسعى إلى إيجادِ عالم منفصل عن القيمة»[1]. إنَّها دعوةٌ إلى «تأسيس مملكة العقل والفردوس الأرضيّ»... وهي «رؤية علمانيَّة تحتفي بِتَأْلِيْهِ الإنسان وتسييده على الطَّبيعة، وتتويجه صانعًا للتَّاريخ. رؤية أعلنت موت الإنسان في سبيلِ مقولات غير إنسانيَّة، مثل: السّوق، والقوّة...وتعدُّ أيّ التزام يتجاوزُ البُعْد العلميّ لا واقعيًّا وخياليًّا وطوباويًّا»[2].

كان ذلك التَّفكير وقبل أيِّ شيء آخر حركةً علمانيَّةً ابتغت تحرير المعرفة من الأوهام والتَّقديسات وتنظيم المجتمع في سبيل تحرير البشر من القيود[3]، وسيكون علم الاَجتماع ابنًا لتلك الحداثة، ومَهَمّته هي كشف أسرار سير عملها في مجتمع فَقَدَ كل أساس خارج عنه (الإله، الطَّبيعة، القدر،...)، ومن خلال ذلك الوعي فإنَّ السوسيولوجيا ستساعد البشر على التَّحكّم الأفضل بمصيرهم[4]، «بعدما أصبحت النّزعة العلميَّة scientism بديلًا حديثًا للدِّيانة التَّقليديَّة الَّتي انهارت»[5].

هل ساعدت تلك الحداثة المنفصلة عن الدين العلوم الإنسانيَّة في فهم أفضل للإنسان؟ وهل بات الإنسانُ أكثر حرِّيَّة في الواقع بعدما تخلَّى عن تعلُّقه بضوابطِ الدِّين؟ وهل قدّمت هذه الحداثة للعلوم الإنسانيَّة رؤيةً مُتماسكةً وثابتةً وواضحةً عن مجتمعات تلك الحداثة وما يجري فيها وعن مستقبل العلاقات بين أفرادها؟

رأى المشروع الفكريّ الحداثيّ في الوضعيّة والانتقال من الميتافيزيقيا إلى التَّجربة الحسّيّة مصدرًا وحيدًا للمعرفة، ولفهم الإنسان، وتنظيم المجتمع. لكن

1- حجاج أبو جبر، نقد العقل العلمانيّ، دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري، مصدر سابق، ص38 .

2- المصدر نفسه، ص 42 و 45 و66 .

3- هارفي، مصدر سابق، ص32 .

4- كابان، مصدر سابق، ص80 .

5- ألفن غولدنر، مصدر سابق، ص116 .

ذلـك المشـروع لـم يتقـدَّم فـي تلـك المعرفـة بالثِّقـة الَّتِـي كان يعتقـدُ بأنَّهـا ثابتـة مثـل المعرفـة العلميَّـة. وهـا هـي الحداثـة تنقلب على مبادئهـا وعلى ادِّعاءاتها بعدما تبيّـن أنَّ العلـم نفسـه ليـس حقيقـةً ثابتـةً، وأنَّ تقـدُّم العلـم لـم يحـلّ مشـكلة الإيمـان، ولـم يحـرّر البشـريَّة، وأنَّ الإنسـان ليـس مـادَّة جامـدة، وأنّ الديـن ليـس وهمًـا ميتافيزيقيًّـا.

باتـت الحداثـةُ فـي مـأزقٍ بعدمـا راهنـت على اسـتبدالِ الديـن بالعلـم حتّـى وصلـت إِلـى الكفـر بالعلـم والعقـل معًـا. إنَّ الإيمـان المُتفائـل بإمكانيَّـةِ الخـروج مـن مـآزق العلـم عبـر التَّقـدُّم العلمـيّ والهندسـة الاجتماعيَّـة المجرّديـن قـد خـاب. وهـا هـو الغـرب مـرةً أخـرى يقـف على عتبـةِ الكفـرِ لا بالديـن هـذه المـرة؛ بـل بالعلـم وبعقـل الإنسـان المُسـتقلّ... لقـد أضـاع العلـم صورتـه النَّقيَّـة غيـر الملطَّخة بوصفه عامل تحرير البشـريّة. أضـاع أيضًـا ادِّعاءاتـه الرَّاسـخة منـذ زمـن طويـل بامتـلاك المصداقيَّـة المعرفيَّـة المُطْلقـة، بعدمـا توقّفـت منتجـات تلـك المعرفـة أن تكـون حميـدة حصريًّـا، مـع التَّجلِّي الواضـح لخطـأ فهمهـا الاختزالـيّ للبيئـةِ الطَّبيعيَّـة، ومـع هشاشـتها الظَّاهـرة أمـام خطـر الانحيـاز السِّياسـيّ والاقتصـاديّ، لـم تعـد جـدارة العلـم العلميَّـة السَّـابقة غيـر المشـروطة بالثِّقـة قابلـة للتَّأكيـد[1].

رفـض «سـيغمونت باومـان» مـا سـمّاه «الإبيسـتمولوجيا الوضعيَّـة الضيقـة»، أو «الإمبرياليَّـة الوضعيّـة» الَّتِـي بشّـرت بهـا الحداثـة فـي قطيعتهـا مـع الديـن، وتأليـه العقـل والَّتِـي تحوّلـت إِلـى خدمـة الطّموحـات العالميَّـة للدولـة/ الأمـة. ووجـه «باومـن» سـهام نقـده قاطعًـا إِلـى «التكنولوجيـا المحايـدة»، «سـلطة المصالـح الأداتيَّـة التّقنيَّـة» الَّتِـي تُعـزِّز الانفصـال القائـم بيـن الـذَّات والموضـوع، وبيـن المُتحكـم والمُتحكَّـم، والمُخضِع والخَاضِـع[2]. ولعـلَّ ذلـك الانفصـال الحـادّ التّقنـيّ بيـن الـذَّات والموضـوع والحيـاد المطلـوب بينهمـا، وعـدم تفاعـل الـذَّات مـع الموضـوع أسَّـس لمـا سـتقومُ بـه لاحقًـا «الـذَّات» الأوروبيّـة تجـاه الشُّـعوب الأخـرى «الموضـوع» الَّتِـي احتلتهـا ومارسـت عليهـا أبشـع أنـواع الظُّلـم وارتكبـت بحقّهـا المجـازر الدَّمويَّـة مـن دون أيِّ رادع قيمـيّ، أو أخلاقـيّ ،ومـن دون أيّ تفاعـل، أو أيّ تعاطـف اسـتنادًا إِلـى «عقلانيَّـة» «الـذَّات» الَّتِـي لا يجـب أن تتفاعـل مـع «الموضـوع».

اتَّخذ باومـان مـن حركـة التَّنويـر نقطـة انطـلاق نقـده المجـازيّ، فـي محاولـةٍ لكشـفِ

1- تارناس، مصدر سابق، ص 435 .

2- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص45 .

الـدَّور المُهـمّ الَّـذي اضطلـع بـه مُفكِّـرو عصـر التَّنويـر مـن أجْـلِ إيجـاد رؤيـة جديـدة للعالـم تخـدمُ الطُّموحـات العالميَّـة للدولـة –الأُمَّـة ؛ إذ لـم يكـن الهـدفُ مـن السَّـيْطرة على الزمـان والمـكان تعظيـم اللـه... كانـت الحـربُ ضـدَّ الإبهـام، كمـا يقـول باومـان، السِّـمة البـارزة للحيـاة الحديثـة، والسِّياسـة الحديثـة، والفكـر الحديـث[1].

لقـد التحقـت العلـوم الإنسـانيَّة والاجتماعيَّـة بتلـك الحـرب المفترضـة ضـدَّ الإبهـام، بعدمـا وضعـت اليقيـن الدّينـيّ جانبًـا، وأرادت أن تكتشـفَ «سـرّ الإنسـان» وأن تميـط اللِّثـام عـن سـرِّ المجتمـع حتَّـى ينكشـف «الإبهـام» خلافًـا للرُّؤيـةِ الدّينيَّـة الَّتِـي تَتَشـكَّل في جوانـب كثيـرة منهـا مـن إبهـام غيبـيٍّ يقينيٍّ لا يمكـنُ إخضاعـه لأيِّ تجريـب وضعيّ، أو تجريبـيّ ملمـوس. وفـي البحـثِ عـن كشـف ذلـك «الإبهـام» اللَّادينـيّ قـال فرويد على سـبيل المثـال: إنَّ ذلـك الإبهـام الَّـذي يـؤدِّي كشـفه إلى فهـم سُـلُوكِ الإنسـان يكْمُـنُ فـي اللَّاوعـي، فـي حيـن قـال آخـرون بأنّـه يكْمُـنُ فـي ردّ الفعل تَجـاه مثيـراتٍ خارجيّـة؛ بينما قـال مُحلِّلـون أنّـه البحـث عـن التَّفـوُّقِ والقـوَّة وتعويـض عقـد النَّقـص... حتَّـى إنَّ مدرسـة التَّحليـل النّفسـيّ قامـت فـي جوهرهـا على ادِّعـاء كشـف ذلـك الإبهـام.

لـم يُحقِّـق «الوعـد العظيـم» مـا بشّـر بـه مـن كشـف الإبهـام، وإزاحـة السِّـتار الدينـيّ عـن العالـم، ولـم يحقِّـق تلـك الحريـة الَّتِـي بشّـر بهـا بعـد التَّفلُّـتِ مـن قيـود الدِّيـن وضوابطـه ونواهيـه. لا بـل تمخّـض ذلـك الوعـد عـن عالـم باتـت فيـه عفويَّـة الفـرد وحريّتـه مُتعرّضتيـن لقـدر مُتزايـدٍ مـن الخنـق... وبـات الأفـرادُ دُمًـى تتحكّـمُ فيهـا نوعيَّـة الحيـاة الحديثـة فـي مـا بـدا أنّـه مـأزق غيـر قابـل للحـلِّ. فمشـروعات الحقبـة الحديثـة السِّياسـيَّة الثَّوريَّـة الكبـرى، الَّتِـي بشّـرت بالتَّحـرُّر الشَّـخصيّ والاجتماعـيّ، كانـت قـد أفضـت تدريجيًّـا إلى أوضـاع بـات فيهـا مصيـر الفـرد الحديـث نحـو مزيـد مـن الخضوع لهيمنـة سلسـلة مـن البنـى الفوقيَّـة البيروقراطيَّـة التِّجاريَّـة والإعلانيَّـة والسِّياسـيَّة. ففـي تلـك السّلسـلة مـن الهيمنـة على مصيـر الفـرد «لـم يعـد الواقـع عـدوّ اللّـذَّة كمـا كان مـن قبـل، باتـت السِّـيادة المطلقـة لمبـدأ اللَّـذَّة فـي عالـم الاسـتهلاك». وأصبـح إطـلاق العنان لاختيـار التَّوجُّـه الجنسـيّ للبشـر إمكانًـا كامنًـا، إن لـم يكـن حقًّـا دسـتوريًّا. هكـذا، تحوَّل البغـاءُ إلى «نشـاطٍ جنسـيٍّ»، وتحوَّلـت «البغـيّ» إلـى «عاملة جنـس» و«قـوَّة اقتصاديَّـة» فـي المجتمـع، وتحـوَّل الأبنـاءُ غيـر الشَّـرعيِّين إلـى أطفـال مـن أُمٍّ غيـر متزوّجـة، أو أبنـاء أسـرة ربهـا أم، أو أب، أو أطفـال مولوديـن خـارج الـزواج... لقـد تمَّـت علمنـة الجنـس مـا

1- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص91.

بعد الحداثة، ونزعت القداسة عنه، ولم يعد الجنسُ أداةً لخلق بنى اجتماعيَّة دائمة؛ بل صار أداةً في خدمةِ التَّفتُّت المُستمرّ... فقد صاحب الاحتفاء بالجنس تفتيت الأسرة بوصفها وحدةً اجتماعيَّةً أساسيّةً.. بعدما صارت الشَّهوة تُعْلنُ بكلِّ جرأةٍ وافتخارٍ أنَّها غاية نفسها، وعلّة نفسها المُكتفية بذاتها[1].

هكذا، أصبح الإنسان نقطة بلا معنى في الكون الحديث، وباتت الحساسيَّة الأخلاقيَّة والجماليَّة العميقة في مواجهةِ قدرٍ مرعبٍ من القسوةِ والفساد. وبات ثمنُ التَّقدُّم التّكنولوجيّ المُتسارع مُطَّرد التَّنامي. وفي خلفيّة كلّ متعة وكلّ إنجاز كانت تكْمُنُ هشاشة البشريَّة غير المسبوقة. ففي ظلِّ إدارة الغرب، كان الإنسانُ الحديث قد انفجر منطلقًا إلى الأمام وإلى الخارج، بقدرٍ هائلٍ من القوَّة، ومن التَّنوُّع، ومن السُّرعة. غير أنَّه بدا مع ذلك، وقد أقحم نفسه في نوعٍ من الكابوس الأرضيّ، والصحراء الرُّوحيَّة، في نوع من التَّضييق القاسي، وفي ما بدا مأزقًا غير قابل للحلِّ[2].

في تأكيد ذلك الإحباط من «الوعد العظيم» الَّذي بشَّرت به حداثة ما بعد المسيحيَّة، وبعدما فَقَدَت الكنيسة الكبرى الجامعة الرّوح المركزيَّة الَّتي تهبُ أعضاء الجسد الواحد الحياة، أصبح كلّ عضو على يقين بأنّه مُكْتفٍ بذاته، يتغنَّى بأناشيد السُّمُوّ والاصطفاء على الأعضاء الأخرى كلّها، وتلك هي الصُّورة الَّتي اتَّضحت معالمها في مجتمعات ما بعد المسيحيَّة ، حيث أصبح كل شعب /دولة/أمّة مركز الاصطفاء على شعوب العالم ودُوَلِهِ وأُمَمِه.

أمَّا المفارقة الكبرى، فتتمثَّل في أنَّ الإنسان صار موضع ازدراء واحتقار، ويؤكد باومنت في نبرةٍ ساخرةٍ أنَّ صورة الإنسان بوصفه وحشًا أنانيًّا كانت لازمة لمُفكِّري التَّنوير الَّذين لم يتركوا فرصةً ليظهروا احتقارهم للعوام الجُهّال والسُّفهاء إلَّا وانتهزوها، ولم يكن مشروع التَّنوير –كما يعتقد كثيرون في العالمين: الغربيّ والعربيّ– حلمًا نبيلًا بنشر نور الحكمة والحرِّيَّة؛ بل أداةً لتعزيز طُمُوحاتِ الدَّولة، وإيجاد «آليَّة اجتماعيَّة تُحقِّق الانضباط»... وهكذا، لا يظهر التَّنوير حركةً تحتفي بالنُّور والحرِّيَّة والعقل التَّنويريّ؛ بل حركة تكشفُ القناع عن «عقلٍ أداتيٍّ إرهابيٍّ»،

1- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص 235-225 .

2- تارناس مصدر سابق، ص 464-463.

وعـن «عنصريَّـة المفكِّريـن»[1]. بِكَـوْنِ أنّ الثَّقافـة الأوروبيَّـة هـي وحدها الثَّقافـة العقلانيَّة، وأنّ الثَّقافـات الأخـرى هـي ثقافـات مختلفـة وغيـر متسـاوية، وأنَّهـا أدنـى بالفعـلِ بِحُكْـمِ الطَّبيعـة، ولا تسـتطيع إلَّا أن تكـون «موضوعًـا» للمعرفـة. مـن هنـا، نشـأت العلاقـة بيـنَ الثَّقافـة الأوروبيَّـة وبيـن الثَّقافـات الأخـرى بوصفهـا علاقـةً بيـن «الـذَّات و«الموضـوع»، أو بوصفهـا عبـارةً عـن الطُّغيـان الاسـتعماريّ الأوروبـي علـى باقـي العالـم. وبالنّهايـة، ليـس هنـاك شـيء أقـلّ عقلانيّـة مـن ادِّعـاء أنَّ رؤيـةً كونيَّـةً خاصَّـة بإثنيّـة مُحـدَّدة يجـب أن تفـرضَ علـى الجميـع بصفتهـا العقلانيَّـة الكونيَّـة مهمـا كان اسـم تلـك الإثنيَّـة «أوروبـا الغربيَّـة»[2].

توصَّـل مُفكِّـرو التَّنويـر والحداثـة إلـى أنّ: كلّ شـيء يمكـن أنْ يكـون ومـا يتعـارض والطَّبيعـة يتعـارض والعقـل... وطبّقـوا ذلـك علـى المجتمـع، فصـار المجتمـع مركـز المرجعيَّـة العُليـا، والقـوّة فـوق البشـريَّة، والسِّـيادة السُّـلطانيَّة، والحاكـم، والمشـرّع ... وارتبطـت حركـة التَّنويـر ارتباطًـا وثيقًـا بتتويـجِ الطَّبيعـة إلهًـا جيـدًا، وشـرعنة العلـم دينًـا حنيفًـا وحيـدًا، والعلمـاء أنبيـاءه وكهنتـه[3].

اكتمـل تَأْليـه المجتمـع مـع ظُهُـورِ السّوسـيولوجيا نظريّـة للحداثـة ولا سـيَّما فـي أعمـال دوركهايـم (1858م ـ 1917م). وهكـذا، بـات المجتمـع في نظريَّـات العلـوم الاجتماعيَّـة، الأسـاس الوحيـد والسُّـلطة الوحيـدة، والمقيـاس الوحيـد للحيـاة الأخلاقيَّة، وسـيحلّ الاستسـلام إلـى سـلطةِ المجتمـع محـلّ الاستسـلام للـه الَّـذِي يُحـرِّر الإنسـان مـن العبوديَّـة، وإن كان الإلـه لـم يمـت تمامًـا فـي ذلـك السِّـياق كمـا أراد نيتشـه؛ بـل هُمّـش واسـتبدل بسـلطةٍ جديـدةٍ «وظهـرت مطلقـات علمانيَّـة مادِّيَّـة (بـدل المطلقـات الدينيَّـة) ومذاهـب دنيويَّـة واعـدة بالخـلاصِ حقيقـة نهائيَّـة، مثـل: الحتميَّـة التّاريخيَّـة، وقانـون العـرض والطلـب والسـوق/المصنع/ والمصلحـة/ اللَّـذَّة / والمصالـح الاقتصاديَّـة، والمجتمـع، والطبقـة العاملـة، والفـردوس الأرضـي، ونهايـة التّاريـخ... لتحـلّ كلّهـا مكان الإلـه، ومـكان المفاهيـم الميتافيزيقيَّـة الخاصَّـة بالآخـرة والبعـث، ويـوم الحسـاب...»[4].

لقـد تحوَّلـت الحداثـة إلـى عبـادة المعرفـة، ورفضـت عبـادة السَّـماء. المعرفـة الأرضيَّة

1- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص 99.

2- أنيبال كيخانو، الكولونياليَّة والحداثة العقلانيّة، موقع كتب مملّة، 17/9/2020م.

3- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص 114-113.

4- المصدر نفسه، ص132-130-128.

والعقليَّـة بِوصفِهمـا حقيقـةً نهائيّـةً، وحاولـت أن تلغـي أسـاس الوجـود وأصلـه الرَّبَّانـيّ المُتَعَالـي، وأنْ تسـتبدله بنظـام وجـود كامـن لا يحتـاج إلـى شـيء خارجـه... وإحـلال الحيـاة المسـيحيَّة الأُخرويَّـة فـي عالـم الدُّنيـا.

عَـدَّت الحداثـةُ الغربيَّـة نفسـها مرجعيَّـةً يقوم عليهـا تأويل الغايـة النّهائيَّة مـن التاريخ؛ فأصبغـت نفسـها بشـرعيَّة وأحقِّيَّـة فـي اسـتعمار المسـتقبل، كمـا اسـتعمرت الفضـاءات المحيطـة. وهـي، مِـنْ ثَـمَّ، المركـز المُتَعَالـي لـكلّ سـلطة، فهـي قائمـة بذاتهـا ومكتفيـة بذاتهـا، ومرجعيَّـة بذاتهـا فـي الصَّـواب والخطأ، ومـن افتـراض أنّ الأزمنـة الأخـرى كلّهـا نسـخ دونيَّـة وبدائيَّـة متأخّـرة ومنقوصـة، أو مشـوهة وممسـوخة ومقيتـة وهكـذا، تحـوّل باقـي العالـم بدعـوى «الرسـالة الحضاريَّـة» والسَّـرديَّات الكبـرى لحركـة التَّنويـر إلـى «فـراغ» ينبغـي «اكتشـافه»، ثـمّ تصميمـه بأفضـل طريقـة[1]. وهـذا مـا سـتضفيه العلـوم الإنسـانيَّة والاجتماعيَّـة الغربيَّـة على نفسـها أيضًـا بأنّهـا علـوم مرجعيَّـة بذاتهـا ومكتفيـة بذاتهـا، وأنهـا تتوجَّـه إلـى باقـي العالـم لتصميمـه «بشـكلٍ أفضـل» !!!

لكـن ذلـك الادِّعـاء لـن يقـود السوسـيولوجيا إلـى «تصميـم العالـم بشـكلٍ أفضـل»؛ بـل علـى العكـس سـيؤدِّي ذلـك كلّـه إلـى فقـدانِ الثِّقة بتلـك السُّوسـيولوجيا الَّتِـي «التزمت قواعـد الخطـاب العلمـيّ التزامًـا أعمـى، وأبقـت المبـادئ الأخلاقيَّـة خـارج سـرديَّاتها، وحوّلـت الفعـل الاجتماعـيّ إلـى شـيءٍ مُحايـد لا علاقـة لـه بالإيمـان ولا بالخيـر، أو الشَّـرّ، وإلـى شـيء يمكـنُ قياسـه وفـق معاييـر إجرائيَّـة لا وفـق قيـم أخلاقيَّة. ويعدُّ بوسـينو المنهـج التَّجريبـيّ الَّـذِي ألزمـت السُّوسـيولوجيا نفسـها بـه خدعـةً انكشـفت. فالمنهـج بِوصفِـه الطَّريقـةَ الصَّحيحـةَ والسَّـليمةَ الَّتِـي تُوصِلنـا إلـى نتائـج أفضـل فـي أسـرعِ وقـتٍ وجهـد، لـم يسـتطع أن يتـلاءم مـع موضـوع علـم الاجتمـاع، ذلـك الموضـوع الَّـذِي لـم يتحـدَّد بعـد، فتعـدَّدت المناهـج بِتَعـدُّد الموضوعـات، وتفاقـم الصِّـراع المعرفـيّ داخـل النّسـق السُّوسـيولوجيّ، وانقسـم المشـهد السّوسـيولوجيّ بيـن مُؤيِّـدي «الكـم» ومُؤيّـدي «الكيـف»، حتَّـى أصبـح موضـوع علـم الاجتمـاع فـي القـرن العشـرين هـو الصّـراع الدَّاخلـيّ حـول أفضـل منهـج، وأحسـن أداء وأسـلوب، وغـاب الهـدف الرَّئيـس لفهـم المجتمـع داخـل غبـار المعركـة». [2]

لا بـل أكثـر مـن انكشـاف خدعـة «المنهـج التَّجريبـيّ»، ستشـهد تلـك السوسـيولوجيا

1- حجاج أبو جبر، مصدر سابق، ص153-151-150.

2- بوسينو، مصدر سابق، ص18.

«تحطّم كلّ شيء، وتفتُّت كلّ شيء» كما يقول بيار بورديو: «لقد تميّزت تلك المرحلة من تاريخ السوسيولوجيا الغربيَّة بالاختلاف في كلّ شيء، والصّراع على كلّ شيء داخل النَّسق المعرفيّ السّوسيولوجيّ... لقد تفتَّت كلّ شيء، الجماعة الَّتي تحترف مهنة علم الاجتماع بوصفها جماعةً علميّةً، ودور عالِم الاجتماع، ومقاييس العلميَّة، كل آمالنا، وكثير من رجالنا، لقد تحطَّم كلّ شيء من منظومة المفاهيم والنَّظريَّات الَّتي استخدمناها من أجْلِ إضفاء مفهوم على العالم الَّذي نعيش فيه، أو نعتقد أنَّنا نعيش فيه، إلى التزامنا وهُويّتنا المهنيَّة، وأصبح الآن باطلًا وغير مفيد...»[1].

كتب يونغ في نهايةِ حياته، مُشبّهًا ما يجري ببداية الحقبة المسيحيّة قبل ألفي سنة، يقول «مزاج مفعم بالتّدمير والتّجديد الكونيّين بات يطبعُ عصرنا. وهو مزاج يتجلَّى في كلِّ المجالات سياسيًّا واجتماعيًّا وفلسفيًّا...وسوف يتعيَّنُ على الأجيال القادمة أن تأخذ ذلك التَّحوُّل الانعطافيّ الحاسم في الحسبان إذا لم تكن الإنسانيَّة مُتَّجهةً نحو تدميرِ ذاتِها من خلال جبروت طاقاتها التّكنولوجيَّة العلميَّة الخاصَّة...»[2]. وكتب هايدغر في نهاية حياته عبارة: «ربٌّ ما يستطيع إنقاذنا».

1- Bourdieu Pierre, Questions de la sociologie.Ed.De Minuit.Paris 1984. p 37.

2- تارناس، مصدر سابق، ص 492-491 .